

## الصالونات الأدبية

لعبت الصالونات الأدبية دورا هاما فى إشاعة الثقافة العالية، فهى تجمع أناسا من مواطن شتى، ويتدارس روادها أحدث ما صدر من كتب، ويناقشون أخطر الأفكار، ويتبادلون آخر الأنباء، والكلمة لاتينية الأصل، وتعنى المكان الذى يستقبل فيه أهل البيت زوارهم بعامة وإذن فتعريبها بندوة أو منتدى لا يودى المراد منها بدقة، لأن محتوى هذين اللفظين قديم، ويعرفه أدبنا العربى منذ أيامه الأولى، فى سمر القبيلة، وتزاحم الناس حول الشعراء فى الأسواق، وفيما بعد فى قصر الحليفة أو الأمير أو الحاكم، ذلك أن المنتديات فى مجملها كانت وفقا على الرجال وحدهم، وأقول فى مجملها لأن صالون ولادة بنت المستكفى فى قرطبة، فى القرن الحادى عشر الميلادى، وصالون حفصة الركونية فى غرناطة فى القرن الثانى عشر، كانا يجمعان الأدباء من الرجال والنساء على السواء.

عرفت فرنسا هذه الصالونات فى القرن السابع عشر، وازدهرت وكثرت فى القرن التالى له، واكتسبت طابعا عالميا بمن كانوا يترددون عليها وبالقضايا التى يتداولها السامرون. وكان يقوم عليها سيدات اتصفن بالألمية والذكا والثقافة والجمال، والحس الاجتماعى

الرهيف، وتجمع ألوانا من المتع الحسية والفكرية، من أدب ونقد وفكر وثقافة، وموسيقا ورقص وشراب، وبذلك أصبحت سوقا لتبادل الآراء، ومجالا رحيبا للأحاديث المتنوعة، تعرض لكل شىء، وتتناول كل جديد وطريف، من استعراض «مودات» الأزياء إلى الأفلاطونية الحديثة، ومن أدب بترارك الإيطالى ومقلديه حتى مناقشة قواعد الإملاء.

بعض هذه الصالونات لعبت دورا بالغ الأهمية فى إلقاء الأضواء الكاشفة على الآداب الأجنبية، ودفع الأدباء الوطنيين المغمورين إلى عالم الشهرة والحلود، وإذا كان يقال اليوم إن شهرة أى فنان أو أديب أو كتاب أو أغنية، فى عالمنا العربى المعاصر، تبدأ من القاهرة، فقد كانت فى باريس القرن السابع عشر تبدأ فى صالون أوتيل دى رامبويه وهو أقدم صالون عرفته فرنسا، وأوروبا بأجمعها.

كانت صاحبة الصالون كاترين دى فيفون، مركيزة رامبويه، (١٥٨٨ - ١٦٦٥)، فتاة جميلة، مصقولة التربية، والدتها رومانية، وأبوها فرنسى، عمل سفيرا لوطنه فى العاصمة الإيطالية، وآثرت فى زمن مبكر أن تدع حياة البلاط، وأن تفتح صالونها عام ١٦٠٨ للنبل، والطبقة الأرستقراطية، والمثقفين الذين يودون أن يرتفعوا بذكائهم ومواهبهم إلى مستوى هذه الطبقات. وأعدت قاعاته، وزينت حجراته، لتبعث البهجة والمتعة فى نفوس زواره وتتسع لهم، ولتكون مقبدا لمجتمع الصفوة الراقية بأكملها.

فى هذا الصالون كانت تلتقى صفوة المثقفين والنبلاء، وعلية القوم، يناقشون التيارات الأدبية الحديثة التى تفجرت حول فرنسا، فى إسبانيا أولا، ثم إيطاليا فيما بعد، فعرف رواده اتجاه جونغبيرة شاعر قرطبة الإشباني، وأصول الرواية الحديثة، وما سوف يطلق عليه أدب التصنع، أو الحذقة، أو الأدب المثقف، والذي يعتمد على زخرفة الأسلوب، والإيغال فى التصوير، وبدأ فى إسبانيا، ورحل منها إلى إيطاليا، وانتهى به المطاف إلى ألمانيا وإنجلترا مرورا بفرنسا نفسها.

وكان الكاتب المسرحى كورنفاى (١٦٠٦-١٦٦٤) من رواد هذا الصالون، وعلى رواده قرأ أصول مسرحياته، ومسرحيته «السيد»، وهو شخصية أندلسية من أثر هذا الصالون، وفيه ارتحل بوسيه (١٦٢٧-١٧٠٤)، وكان شابا، خطبة امتدت حتى منتصف الليل، وقال عنها فواتير أنه لم يسمع بمثها لامن قبل ولا من بعد، وتردد عليه هالرب (١٥٥٥-١٦٢٨) الشاعر، وظهر أثر القصائد الإيطالية واضحا فى شعره، وبخاصة فى أيام شبابه الأولى قبل أن ينضج، على حين اهتم فوجيلا (١٥٨٥-١٦٥٠) ببقاء اللغة الفرنسية، ومقاومة التسرب الأجنبى إليها، فى الألفاظ أو التراكيب، واستخدم أعضاء المجمع الفرنسى مؤلفاته فى الدفاع عن اللغة هاديا لهم، وعلى حين كان مهتما بالمفردات والنحو، كان الشاعر شبلاى يبدل أقصى جهده لتثبيت مبادئ الكلاسية فى الأدب. وقالت عنه جولى ابنة صاحبة الصالون، أنه «شاعر ملحمى تعس، فاتن الجمال، ومتعب حتى النخاع».

وتعكس أعمال فواتير (١٥٩٨-١٦٤٨) التي نشرت فيما بعد روح هذا الصالون بدقة، ورغم أنه من أصل متواضع، ظل على امتداد سنوات طويلة العبقرية التي ترأس الغرفة الزرقاء فى الصالون، وآثر أن يعيش حياته أولا، وأن يظهر مواهبه فى الموضوعات الصغيرة والتافهة، فى مقطعات شعرية يصوغها فى مهارة، ويجعل منها نموذجاً، أو فى رسالة غرامية تحمل مشاعره، وتصبح للآخرين مثلاً، وبذل جهداً كبيراً كى يكون واضحاً، وجهداً أكبر فى اختيار موضوعات تافهة عابثة، ومع ذلك كانت رسائله موضع الإعجاب والتقدير، ومثلاً عالياً للأناقة الرفيعة، وقد ذهب النسيان بسخرياته وعبثه وتفاهته، وبقي منه أنه أخضع النثر الفرنسى لكى يتسع للتعبير عن حياة المتع والذادة.

وفى بعد أصبح الروائى الفرنسى بلزاك من رواد الصالون أيضاً، ويردون عالية مصادره واتجاهاته إلى تأثير أجواء الصالون، والحوار الذى كان يجرى بين قاعاته. وكانت هدام لافيت من بين الشخصيات التى تتردد عليه فى أيامه الأخيرة، ولعله ألهمها روايتها «سيلة»، وهى تعبق بأريج أندلسى إسبانى نقاذ. وشهد الصالون نقاشاً حاداً بين رواده حول الهجاء الصحيح لكلمة muscadin، ومعناها شاب أنيق، هل تكتب هكذا، أو تكتب على النحو التالى: muscardin، ولم ينته المتحاورون إلى رأى حاسم ودخلت الصورتان المعجم الفرنسى.

وحين بلغت ابنتا صاحبة الصالون، جولى وأنجليك، السن التى تهبىء لهما الاشتراك فى المناقشات انضمنا إلى رواده، وأصبحتنا من زهوره، وأبديتنا استعدادا أدبيا عاليا ومبكرًا، فهما يقرآن مسرحيات كورنای وينقدانها، ويعكفان على دراسة كتاب «مقال فى المنهج» لديكارت، وبلغ إعجابهما بهذا الفيلسوف غاية، وفتنتنا بالمقطعات الشعرية التى تتغزل فى الأزهار، وقلعت مجموعة منها تبلغ الستين هدية لجولى، حين بلغت سن الرشد، وأقيم لها احتفال خاص تقدم فيه إلى المجتمع الباريسى آنسة. وفيما بعد افرقت الأختان أدبيا، وكونتا حزبين متنافسين، وقامت بين الفريقين مناقشات أدبية حول الشعارين فواتير ونسيراد (١٦١٣ - ١٦٩١)، أيها أرق وأجل، وكلمة الخدلة Précieux التى أطلقت على نوع من الأدب الفرنسى يُعنى بالزخرفة تعود إلى هذا العصر، وترددت كثيرا فى هذا الصالون. وقد امتدت الحياة بصاحبة الصالون، حتى شاهدت مسرحية هولير الساخرة «المتحذقات الساخرات».

لم تتوقف عادة الصالون الأدبى فى فرنسا، وانتقلت من باريس إلى بقية عواصم الأقاليم، وألقينا الضؤ على بعض ما جرى فى أهمها، وكان نموذجا لها ومثلا، وليس هنا مكان أن نأتى على باقها، ولكن صالونا آخر أخذ شهرة عالمية، ولعب دورا هاما فى الحياة الأدبية، لا يمكن أن نمر به غافلين، وأعنى به صالون هدام كدى ستال فى باريس، أو فى قصر كوبيه على ضفاف بحيرة جنيف حين تكون فى

المنفى، وكانت صاحبه أديبة كبيرة، وناقدة عظيمة، هيأت المناخ لتطور عظيم فى النقد والأدب، وقد فتح صالونها فى كويه أبواه على دفعات بين عامى ١٧٩٥ و ١٨١١ لكثير من الأدباء المشهورين الذين ينتسبون إلى عدد من الأمم المختلفة، وكان إبان هذه السنوات البوتقة التى انصهرت فيها الخلافات القومية الأوربية، وأطل المفكرون من خلاله على آداب الأمم الأخرى.

وخارج فرنسا اشتهر صالون الدوقة هازرين فى لندن فى القرن السابع عشر، وقام بنفس الدور الذى قامت به الصالونات الفرنسية، ومثله صالون ليدى هولاند فى القرن الذى تلاه. وفى عام ١٧٥٠ أنشأت مدام نوردان فليشت أول صالون أدبى فى استوكهولم عاصمة السويد.

بعض ما كان يجرى فى هذه الصالونات نراه اليوم جنونا، ورغم ما أصاب الأدب فى ظلها، بتعظيم أشياء لا أهمية لها، لعبت دورا بالغا فى جعل التقاليد أكثر رقة، والأفكار أشد خصوبة، وعملت على تشجيع الوضوح، ومراعاة الذوق فى التعبير، وفتح الطريق أمام الأدب لكى يتميز اجتماعيا، وعظم تأثير النساء فيه، وأصبحن قوة كبرى فى توجيهه، إلى ما هو صالح أو طالع على السواء.



حين بدأت اليقظة العربية خطاها الأولى في مصر عرفت القاهرة هذه الصالونات تأثيراً بفرنسا، وإذا كانت هناك قد ازدهرت في قلاع السادة، وقصور الأميرات، وبين علية القوم، فقد قام في القاهرة أول صالون نعرفه في العالم العربي، ولدينا بعض أخباره في قصر الأميرة نازلي فاضل، وبإشرافها، وهي بنت الأمير مصطفى فاضل، وكان ولياً للعهد حين كان أخوه إسماعيل الخديوي، ولكن هذا غير نظام ولاية العهد، وجعلها في أكبر أبنائه، فهاجر مصطفى فاضل إلى الآستانة، وكان عجا للثقافة، ولديه مكتبة كبيرة، استولى عليها الخديو إسماعيل، وجعلها نواة دار الكتب المصرية، وحول قصره في درب الجماميز إلى قاعة للمحاضرات العلمية، ومالئث أن أصبح مقراً لمدرسة دار العلوم العليا، وكانت الأميرة نازلي متزوجة من سفير تركيا في باريس، ودفعت بها ثقافتها إلى أن تتصل بجماعة تركيا الفتاة، التي اتخذت من العاصمة الفرنسية مقراً لها، وكانت تعارض السلطان عبد الحميد، وتطالب بالإصلاحات الدستورية، وحين توفي زوجها جاءت مصر، وشاركت في النشاط الاجتماعي والثقافي في تلك الأيام.

كان يتردد على صالون الأميرة نازلي كبار المصريين والأوربيين، أناس من ثقافات مختلفة، نعرف منهم الامام محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمد المولحي، وحسن عبد الرازق، وحسن عاصم، وآخرون ممن لعبوا

دورا هاما فى تطوّر الحياة الاجتماعية والفكرية فى مصر. وكانت الأحاديث فيه تدور غالبا حول القضايا السياسية، ووسائل الإصلاح الاجتماعى والدينى التى تشغل الناس فى ذلك الوقت، وفيه تبلورت أفكار قاسم أمين التى حملها كتابيه: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ووجد من زملائه التشجيع، وكانت صاحبة الصالون هى التى اختارت صفية ابنة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء زوجة لسعد زغلول، وتوسطت له فى ذلك. كما أن الإعداد لإنشاء الجامعة المصرية تم فى هذا الصالون. وبعامة كان الصالون وقفا على الطبقة الأرستقراطية ومن تعلق بها، لا يبلغه إلاّ الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية إلى مقام ممتاز، ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل أحدا من يترددون عليه.



وفى ذات الوقت تقريبا شهدت حلب فى ديار الشام مولد صالون شبيه، رغم تعنت التقاليد وتحلفها، ورجعية الحكم العثمانى وقساوته، فى دار امرأة تنتمى إلى أسرة شهرة بالأدب والعلم والفضل، هى: مرينا مراش (١٨٤٩ - ١٩١٩)، ويصفها قسطنكى الحمصى، وكان من رواد الصالون بأنها «مليحة القد، رقيقة الشائل، عذبة المنطق، فكهة الأخلاق، طيبة المعشر تميل إلى المزاج، حسنة الجملة، عصبية المزاج».

كانت مريانا أول أديبة سورية برزت في مجالات الأدب والشعر والصحافة في عصرنا الحديث، ومع أن الحكم العثماني لم يكن يسمح، حتى عام ١٩٠٨، لأى امرأة بأن تصدر صحيفة أو مجلة، أو تعبر عن مشاعرها وأفكارها عن طريقها، حتى لو كانت نائية، لأن ذلك، فيما يرى، يخالف الديانة والعادات الاجتماعية الإسلامية، إلا أن ماريانا استطاعت أن تحصل على رخصة بنشر ديوانها الأول، وكان صغير الحجم، يضم قصائد في الغزل والمديح والرثاء، وصدر عام ١٨٩٣م، وربما يترحسوها على الرخصة أن من بين قصائده واحدة هتأت بها السلطان عبد الحميد عندما تولى الخلافة، وثانية عايدته بها في أحد أعياد جلوسه على العرش، وهنأت أمه بقصيدة أخرى.

منذ صباها الباكر بدأت مريانا تكتب في مجلة «الجنان» التي كانت تصدر في بيروت عن القضايا الاجتماعية، فكتبت تدعوات جنسها إلى الكتابة، وترغبين فيها، وتنتقد عادات المرأة العربية المعاصرة، وتحضها على التربية بالعلم، والتحلى بالأدب، وتشكو من انحطاط أساليب الكتاب، وتحثهم على السمو بالمواضيع التي يكتبون فيها، والترقى بأساليبهم، ونشرت مقالاتها أيضا على صفحات «لسان الحال» في بيروت، و«المقتطف» قبل أن تترك بيروت وتلوذ بالقاهرة، وبعدها في مجلات أخرى، ورغم أنها لم تكن في البدء، ولزمن، توقع المقالات التي تكتبها، لأنه لم يكن مسموحا للمرأة أن تعبر عن مشاعرها، أو حتى عن أفكار إنسانية عامة، فقد وجدت

مقالاتها صدى طيبا بين نساء عصرها، وأحيانا كانت تنشر ما تكتب على أنه «ترجمات من بعض الصحف الأجنبية»، رغم أنه من إبداعها وبقلمها.

كانت هريانا تجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية، كثيرة السفر إلى أوروبا، تقف عند معالمها الحضارية، وترقب سير الثقافة والفكر فيها، وتتأمل أسباب نهضتها، ومن المرجح أنها قرأت، وربما عرفت أيضا، شيئا عن الصالونات الأدبية في باريس، ما شغل منها القرن الثامن عشر، أو كان قائما على أيامها، مما دفعها إلى أن تقيم في بيتها صالونا، على غير سبق في بلدها، رغم تخلف العادات، وفساد الحكم العثماني ورجعيته.

وقد أصبح صالون هريانا في حلب، مثابة الفضلاء، وملتقى الظرفاء والنهباء، وعشاق الأدب، ويتردد عليه قسطنطين الحمصي، وجبرائيل الدلال، وكامل الغزى، ومن أسرتها فرنسيس هراش، وعبد الله هراش، وكان هذا الأخير يديج المقالات السياسية الداعية إلى الحرية، في جريدة «مرآة الأحوال» التي تصدر في لندن عام ١٨٧٦م، وآخرون من الشخصيات الأدبية حلبية وشامية وأجنبية، يلتقون على موعد، يتناشدون الأشعار، ويتناقشون في الأدب، وتضفي صاحبة الصالون على الجمع جوا من الألفة والمودة والرعاية وحسن اللقاء، وتشارك في الحوار، وتدلى برأيها فيما يعرض من قضايا، وتطرحهم من حين لآخر حين تعزف لهم على البيانو أنغاماً جميلة.

ولكن الحياة فى ظل الحكم العثمانى كانت أسوأ من أن تحتل هذا التقدم والرقى، فضيقت على رجال الفكر والأدب، ورأت فى تجمعهم تحت أية راية خطرا على نظام الحكم، وعصفت بهم وقت عليهم، واضطرتهم واحدا وراء آخر إلى مفارقة ديارهم، ذهب بعضهم إلى أوروبا، وهبطت الأغلبية مصر، واتخذت منها وطنا، ووجدت فيها ترحيبا، وحرية فكر، فأصدروا ما يريدون من صحف، وكتبوا ما يريدون من آراء، ونشروا ما عندهم من إبداع، وأقفر صالون مرانا من رواده، وإن ظلت هى ترأس الصحف والمجلات الأدبية فى القاهرة وبيروت.



على أن أشهر الصالونات العربية وأحفلها بالشخصيات التى تتردد عليه، صالون الأدبية هى زيادة (١٨٨٦ - ١٩٤١)، أبوها إلياس زيادة من لبنان وأمها من فلسطين، وبرعت فى مجال الأدب مبكرا، وأخذت يحظ وثير من الثقافة، فكانت تحيد الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وترجم منها فى سهولة، وكان ديوانها الشعرى الأول «أزاهير حلم Fleures des Reve» باللغة الفرنسية، وإلى جانب ذلك تعرف الإيطالية، وتلم بالإسبانية واللاتينية والسريانية واليونانية، وتكتب فى العربية بأسلوب شاعرى أخاذ.

نزحت هى إلى القاهرة مع والدها حين جاء مصر عام ١٩١١ بحثا عن الحرية والتسامح، وهربا من التخلف والاستبداد السائدين فى

فلسطين ولبنان والشام، وكان ميور الحال فامتلك أرضا زراعية، وحقق رغبته الصحفية فاشترى جريدة المحروسة، واتفقت هجرة مّي مع اكتمال أنوثتها فأصبحت ناضجة آسرة، ذات دلال يزيدنها فتنة، ولو أن الهجرة نفسها تركت في أعماقها آثارا بعيدة المدى لم تندمل مع الزمن، فكتبت إلى العقاد إثر رحلة إلى لبنان رسالة ضمنها مقتطفات من مقالة نشرتها بعد عودتها، بعنوان: «أين وطني؟» تقول فيها: «... ولدت في بلد، وأبى من بلد، وأمي من بلد، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلاأى هذه البلدان أنتمى؟.. وعن أى هذه البلدان أذافع؟.. يمضى الموتى تاركين للأحداث وراثات حسية ومعنوية ينعمون بها، وشرفا قوميا يعززونهم، وتقاليد يحافظون عليها. أما أنا فلم يبق لى من آثار موتاى سوى الأثقال المعلقة فى يدي وعنقى!. فلماذا قُدر علىّ أن أكون ابنة وطن تنفضة شروط الوطنية، فأمسى تلك التى لا وطن لها!». .

كانت ضائعة، لأن القومية العربية لم تكن قد اتضحت معالمها كاملة بعد فتنتمى إليها، ولم تكن مسلمة فتشعر بانضوائها تحت راية الجامعة الإسلامية، ولا مفكرة فيلسوفة تخترق حجب الغيب، وتبشر بوحدة قادمة، وتسهم فى بنائها، وكانت على أيامها وهما، وهى أمل على أيامنا، ونرجو أن يعيشها أحفادنا واقعا.

وصف سلامة موسى الأنسة مّي وصفا حسيا فى حديث أجراه معها، ونشره فى عدد أغسطس عام ١٩١٤ من مجلة المستقبل، فقال

عنها: إنها «رَبَّعة، مستديرة الوجه، زجاء الحاجبين، وطفاء الأهداب، دعجاء العينين، يتألق الذكاء في بريقها، ويجلج وجهها الجميل شعر جثل أسحم، وتلعب على شفثها ابتسامة الخقر، وهي أبعد النساء عن الاسترجال وأشدهن أنوثة» .

في جريدة والدها «المحروسة» بدأت نشاطها الأدبي، فأخذت تكتب بابا ثابتاً تحت عنوان: «يوميات فتاة»، وكانت غاية مقالاتها فكراً إصلاح المجتمع ورقى الأمة، واتصفت أسلوبها بتخير الألفاظ ذات الجرس الموسيقى، ولو أنها تكيف أسلوبها حسب ماتقتضيه الغاية، ومحاولة التأثير في القارئ عن طريق العاطفة، فيجئ شجياً ناعماً في مواقف الحزن والحب، هامساً عاتباً رقيقاً في الدعوة إلى الإصلاح والتنبه إلى نقص، متهاكماً قارصاً عند التعرض للعوائد الاجتماعية المتخلفة، رشيقاً في مجال العرض القصصي، ينضح عاطفة متأججة في المواقف الحماسية، وينعكس في كل ذلك ثقافتها الأجنبية الواسعة، وما كان منها رومانسياً بخاصة، فقد تعلقت بقراءة لامارتين، ودي موسيه، وشاتوبريان وجورج صائد من الفرنسيين، وبايرون وكيتس وشيللى من الانجليز، وترجمت عن الألمانية رواية «غرام ألماني» من تأليف هكس هولر بعنوان: «ابتسامات ودموع» .

فقدت هي والدها عام ١٩١٩، وكانت صدمتها شديدة فيه، إذ كانت تعتمد عليه في مواجهة المجتمع، واقتحام دروبه، ولكنها بمآزرة السوريين الذين في مصر، وكانوا يتعاضدون فيما بينهم، تولت تحرير

الجريدة، وأمدتها جريدة الأهرام بالعون، بل إنها قدمت لها عام ١٩٢١ مكانا مناسباً في الطابق العلوى من إحدى عمارات مبناها القديم في شارع مظلوم، وبدأت في الوقت نفسه تكتب في جريدة الأهرام، ومجلة الزهور لصاحبها أمين قفى الدين وأنطون الجميل، وكان داود بركات رئيس تحرير الأهرام إذ ذاك متيباً بمي على تقدم سنه، وهو الذى غير اسمها من هاربة إلى هتي وأردفه بلقب النابغة، وقيل أن الغرض من تقديم المكان لها كان تجارياً بحتاً، القصد منه كسبها كاتبة، ونقل اهتمامها إلى جريدة الأهرام ومجلة الزهور. وقد انتهى الأمر بالمحروسة إلى التوقف عن الصدور، ومع الزمن لم تقصر متي جهدها على الأهرام والزهور فأخذت تكتب في «المقتطف» و«الهلل»، وأشرفت على الصفحة النسائية في «السياسة الأسبوعية»، وأسهمت في تحرير مجلات مصرية وعربية أخرى.

بدأ صالون متي عام ١٩١١، في مسكنها في شارع عدلى، في المكان الذى تشغله محطة البنزين الآن، وكان يحمل اسم شارع المغربى، ثم انتقل عام ١٩٢٢ إلى الطابق الذى قلعت له جريدة الأهرام، واستمر حتى نهاية الثلاثينيات، واعتادت متي أن تستقبل فيه كل يوم ثلاثاء نخبة من الباشوات الكبار، أو الأدباء الأثرياء، أو من الأدباء المعدمين، تمتلئ بهم حجرات الدار، وتساعدوا أمها في الترحيب بالضيوف، تجلس في صدر الصالون، وحواليها حشد فيه: اسماعيل صبرى باشا، ومنصور فهمى باشا، وولى الدين يكن،

ولطفى السيد باشا، وشيخ العروبة أحمد زكى باشا، ورشيد رضا صاحب مجلة المنار، وابن أخيه محيى الدين رضا، والشيخ على عبد الرزاق، ومصطفى عبد الرزاق باشا، وأنطون الجميل باشا، وخليل مطران بك، وحافظ إبراهيم بك، والأمير مصطفى الشهابى، والفريق أمين المعلوف، والدكتور يعقوب صروف، والدكتور شبلى شميل، وسلامة موسى، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعى، وإسماعيل مظهر، وإيمى خير، ومحمد حسين المرصى، والخطاط نجيب هواوينى، وأحيانا عبد العزيز باشا فهمى، وأحمد شوقى، وإبراهيم المازنى، وآخرون .

كان المترددون على الصالون يمثلون تشكيله متنافرة وعجبية، فى مجالات الفكر والأدب والسياسة، بينهم المؤمن والملحد، والمسلم والمسيحى، والذكى ونصف الذكى، والمرتبطة بالماضى، ومن لا يتجه لغير المستقبل، والمجدد والمقلد، وأصحاب الثقافة العربية وحدها، أو الأجنبية وحدها، والجامعون بين ثقافات عديدة، وقد قدم لنا طه حسين صورة لرواده فقال: «... وكان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتنا شديدا، فكان منهم المصريون والسوريون والأوربيون على اختلاف شعوبهم، وكان منهم الرجال والنساء، وكانوا يتحدثون فى كل شئ، وبلغات مختلفة، وبالعربية والفرنسية والإنكليزية، وربما استمعوا لقصيدة تنشد، أو مقالة تقرأ، أو قطعة موسيقية تعزف، أو أغنية تنفذ إلى القلوب» .

وهم خارج الدار يهاجم بعضهم البعض فى عنف، ويتبادلون أشد التهم، ويستخدمون أقسى الألفاظ، فى الأدب أو السياسة، فإذا اجتازوا عتبة الصالون نسوا خلافاتهم، وأخذوا يتبادلون الرأى فيما يقرأون أو يسمعون، على امتداد العالم العربى وخارجه، ومتى معهم، تشترك فى الحديث وتديره، وكما يقول عباس العقاد: «وهبت ملكة الحديث فى طلاوة ورشاقة وجلاء، وهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث، وهو ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلسين المختلفين فى الرأى والمزاج والثقافة والمقال. فإذا دار الحديث بينهم جعلته متى على سنة المساواة والكرامة، وأفسحت المجال للرأى القائل، وللرأى الذى ينقضه أو يهدمه، وانتظم هذا برفق ومودة ولباقة، ولم يشعر أحد بتوجيه الكلام منها، وكأنها توجهه من غير موجّه، ويتنقله بغير ناقل، وتلك غاية البراعة فى هذا المقام».

وقدم سلامة موسى تعليلاً جيداً لتفوقها فى الحديث وإدارته على الكتابة، فقد كانت فى الأول أذكى منها فى الثانى، «والسبب أنها شرقية، تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ماتفكر فيه، ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث».

استطاعت هى أن تفتن أعلام عصرها، رغم أنها عادية الجمال، وكان وراء ذلك ذكاء نادر تتمتع به، وإطلاع واسع يفرض احترامها، إلى قدر من اللباقة والأناقة فى اللقاء والترحيب، فلا يجالسها مفكر أو أديب أو شاعر حتى يعجب بها، ويخالها تحبه، فهى تتكلم بسهولة،

ولغة صحيحة، فيؤخذ من يصفى إليها بتلك النعمة الآتية من الأعماق، وقد تنتقل بالحديث من العربية إلى غيرها مما تجيد من اللغات الأجنبية، فضلا عما تعرفه من الفنون الجميلة كالتصوير والموسيقا، فلا يعرف مجالها الملل ولا السأم.

لكن إعجاب الرواد بها لم يكن واحدا، ولا بمستوى واحد، بعضهم يكتفى بالنظر والإنصات كعبد العزيز فهمي، وبعضهم يتأمل ويسرح كأحمد شوقي، أو يلجأ إلى الغزل المكشوف كولى الدين يكن، أو يكتب الخطابات الغرامية كلطفى السيد وعباس العقاد، وتعودت متى على كل هذا، فهي تتجاهل الألفاظ والكلمات والروايات التي تجدها خارجة، كأنها لم تسمع ولم تقرأ، أو كأن الرسالة لم تصل.

كان مصطفى صادق الرافعي متيا بمى، مع أنه يقيم فى طنطا، وله زوج وأولاد، ويكبرها بثلاثين عاما، ويكر فى الحضور كل ثلاثاء على أكمل ما يكون مظهرا وأناقا، وتستقبله متى بما يليق بمكانته كأديب إسلامى وعربى كبير، وشاعر يزاحم شوقى فى إمارة الشعر، وكانت إصابته بالصرم تجعل مشاركته فى الأحاديث محدودة، وربما لهذا السبب أولته متى رعاية خاصة ظنّها حبا، فكتب إليها رسائله التى ضمنها كتابه أوراق الورد عام ١٩٢٣م فلما ذهبت صرخته سدى، وأحسن بفتورها نحوه، كتب إليها عام ١٩٢٤ رسائله الثانية رسائل الأحران، وفيها بدا أشد هياما من رسائله الأولى، وضمنها فلسفته فى الحب والجمال، وفى العام نفسه أرسل إليها رسائله الأخيرة

من خلال كتابه السحاب الأحمر، وتعكس عواطف الغضب والانتقام التي كانت تجتاح داخله .

وكان الشاعر إسماعيل صبرى مهذبا مصقولا ، ويكبر متى بثلاثين عاما أيضا ، ولا يلقاها إلا وينحنى على يدها مقبلا ، وهام بها حيا ، ولم يخف هواه أو غيرته عليها ، وصاغ ذلك شعرا ، على حين كان ولي الدين يكن يمجها «باشتاء وجسارة» ، وربما أحست متى بعواطفه ، أو لعلها أشفقت عليه بسبب مرضه وبؤسه . وكان مصطفى عبد الرازق يمجها فى عفة وحياء ، وكتب إليها مرة من باريس يقول :  
إنه على حبه للعاصمة الفرنسية «يتعجل العودة إلى القاهرة .. لأن فيها من هو أحب إليه من مدينة الشباب والأمل» .

وكان عباس العقاد يأمل ، فى السنوات الأولى على الأقل ، أن يحتل من قلبها مكانا مرموقا ، إن لم يكن المكان الأول ، فحام حول الحمى سنوات ، ولكن كبرياء المتنبى فيه حال دون أن يفصح أو يواصل ، وكانت متى على الطرف الآخر ، يلفها حياء شديد ، وفى خلقها احتشام درجت عليه منذ الصبا ، ذات فطنة قوية ، شديدة الحفاظ على كرامتها رغم شبابها المتوقد ، فلم تصرح بشيء ، رغم الرسائل المتبادلة بينها ، وتوقف بها الأمر عند رسائل فيها تلميح وعتب ، وإقبال وصدود ، ولاشئ أكثر من هذا .

وهناك من كانت علاقتهم بها تعبق بأريج الأبوة ، كالذى كان من الدكتور شبلى شميل ، إذ كان طيبب العائلة وصديقا حميا لها

ولأسرتها ويعاملها كابنة له، وربطتها بسلامة موسى صداقة حميمة، وإعجاب متبادل لم يتجاوز هذا القدر، رغم أن فارق السن بينها لم يكن كبيراً، ولم يكن سلامة موسى قد تزوج بعد.

أين كانت هي من هذه القلوب الهائمة؟ من المؤكد أن قلبها كأثنى خفق واضطرب، أمام شخص ما فى لحظة ما، وأنها أحببت وهامت، ولكنها استطاعت أن تكتم هواها فلم يعرف له أحد قراراً حقيقياً. قيل إنها أحببت جبران خليل، ولكن عواطفها ظلت ورقية، نلقاها فى الرسائل المتبادلة بينها، ولم يتجاوزها، ومات جبران ولم تعرفه إلا صورة. وربما هفا قلبها إلى الجانب الأجل فى كل الذين يترددون عليها، ولم يثبت جملة عند واحد، إذا كانت، فيما يقول سلامة موسى، «تحب عيني الشيخ مصطفى عبد الرازق»، وتؤثر لطفى السيد بشيء من الود، ومثله أنطون الجميل وخليل مطران.

استمر صالون هي قرابة ثلاثين عاما كاملة، وهي أطول فترة عرفها صالون أدبى، فى الشرق أو الغرب، ثم بدأ العمر يتقدم بصاحبه، وأخذت الشيخوخة تزحف عليها، واختطف الموت بعضاً من رواده، وانفض الآخرون لأن الصالون كان يفتقر المنهج والغاية، ويتوقف على جمال صاحبه، ورقتها ودلالها، ولم يبق من الأمس إلا طيفه، ومن المجد إلا رماده، وتحولت حياة صاحبه نفسها إلى خواء، ركبها همّ و القلق والرعب، وحاصرتها الأمراض النفسية، وتخلّى عنها الجميع، وودّعت الدنيا وحيلة فى مستشفى المعادى، بعد أن أنزلت

قبله مكرهة مستشفى المجانين فى العصفورية فى بيروت عاما، ولزمت مستشفى الجامعة الأمريكية فيها عاما آخر، رغم أنها لم تفقد توهجها العقلى حتى الأعوام الأخيرة من حياتها.

وأغلق الموت حقبة من الزمن فى حياتنا الأدبية، بما لها وما عليها، وكان تأثيرها فى مجال الإبداع والتقد قويا مثمرا، فأثرت حياتنا الأدبية فى مجالات الشعر والنثر، والتأليف والصحافة.

وبينا صالون هتى يغلق أبوابه تعرضت الحياة الاجتماعية فى مصر لدرجات عنيفة، وتغيرات عميقة، فخرجت المرأة إلى مجال العمل فى أعداد كبيرة، وملأت الفتيات المدارس والجامعات، ولم تعد المرأة شيئا نادرا يجهد الإنسان وراءه ليراه أو يحاوره، ولم تعد الأبنية فى معمارها الحديث الضيق، والمدينة فى امتدادها الواسع المترامى، تشجع على مثل تلك الصالونات، فحلت مكانها المنتديات فى دور الصحف، وفى المقاهى، وعرفت القاهرة فى الأربعينات، والحقبة التى تلتها، باراللواء وبار الأنجلو قرب مبنى جريدة الأهرام القديمة، وقهوة الخلمية فى الخلمية الجديدة، وقهوة القزاز فى باب الخلق، والفيشاوى فى حى الحسين، ومقاهى أخرى خلفت مآثر منها، أو انحط مستواها، وفى الوقت نفسه حاولت بعض المتأدبات فى مصر وسورية إقامة مثل هذه الصالونات، ونسبن أن الزمن غير الزمن، وأن الناس غير الناس، فجاء محاولتهن تقليدا شائها، يفتقد الأصالة والغاية، وانتهت كلها إلى لاشيء.

## الأندلس فى الأدب الأمريكى

وشنجتن إرفنج

بين أهباء الحمراء وجنة العريف!

«اعطه صدقة ياسيدتى ....»

فليس فى الحياة قسوة تعدل أن يصبح

المرء أعمى فى غرناطة».

ف. ا. دلكانا

رأى الحياة لأول مرة فى مدينة نيويورك، فى الثالث من شهر أبريل عام ثلاثة وثلاثين وسبع مئة وألف. طفل عليل نحيل، من أب اسكتلندى وأم إنجليزية، اسمه وشنجتن إرفنج، ولم تكن المدينة يومها، كما هى الآن، زاحمة بالسكان، زاخرة بالتواطح، مادية الطابع، آلية الحياة، الدولار فيها أكثر الألهة أتباعا، إنما كانت مجرد مدينة متواضعة لا يزيد أهلها على ثلاثة وعشرين ألف ساكن، تدعى «أمستردام الجديدة»، اشتراها المقصرون الهولنديون من الهنود الحمراء بأربعة وعشرين جنيا، ثم بدأ فقراؤهم يتوافدون عليها واحدا إثر آخر،

يقيمون فيها متاجر صغيرة لبيع الأقمشة الزاهية المخططة، وجلود الدببة البيضاء الناصعة، وتلا هؤلاء مهاجرون آخرون، أرسلت بهم شركة «الهند الشرقية الهولندية» إلى هناك، من طبقة أوفر ثراء وأكثر ثقافة، لرفع مستوى الحياة وتحبيب المهاجرين في البقاء. وقد نقل هؤلاء الهولنديون فقراء وأغنياء كثيرا من أساطيرهم وتقاليدهم وغاذج حياتهم، فثمة طواحين هواء كسولة، وشوارع ضيقة متعرجة، وبيوت معتمة اللون، عتيقة المعمار، وسكان يعملون في هدوء، ويتشاءمون حياتهم في تراخ، فإذا غربت الشمس وجن عليهم الليل، تجمع عجائزهم وشيوخهم على عتبات البيوت، يدخنون ويتأملون، يتحكون تاريخ أوائلمهم، ويتقاضون ذكريات أمسهم، ويتندرون بأساطير أسلافهم، وما فيها من خرافات وغرائب وخيال ومعجزات، وقد ظل هؤلاء الهولنديون يكونون أغلبية السكان حتى مطلع هذا القرن على الرغم من احتلال الإنجليز للمدينة زمنا، ومجيء مهاجرين جدد من جهات أوروبية شتية، ومن ثم فإن التقاليد الهولندية ظلت سائدة، وفرضت نفسها على تقاليد الآخرين!

كانت أسرة وشنجتن قد هاجرت إلى نيويورك قبل مولده بضع وعشرين عاما، مع ذخيرة متواضعة من المال، وحصيلة وافرة من البنين، فقد كان أخوته أحد عشر ولدا، ولكي يعيشوا كان عليهم أن يعملوا كثيرا وجميعا، وفي ظروف كهذه ماتستطيع الأسرة أن تقدمه لأولادها من تربية يكون في الغالب محدودا جدا بالضرورة، لكن الطفل وشنجتن أحس مبكرا برغبة نهمة للقراءة، وكانت مؤلفات

تشوسر وسبنسر وإديسون فى مكتبته ، فاستوعبها على نحو يمكن القول معه أنه حفظها ، وكان مغرما بالرحلات وحيدا ، يتجول فىما حول المدينة ، ويتغذى بمحكايات الأمهات وأساطير الجدات ، يقبل عليها ويهتم بها أكثر من حرصه على دراسة الحقوق ، وكان قد انتسب إلى مدرسة لها .

وعندما بلغ العشرين من عمره كانت حالته الصحية دقيقة وتدعو إلى القلق ، فاهتم أخوته بأمره ، وأرسلوه إلى جنوب أوروبا عام ١٨٠٤ لى يشفى مما به من علة ، فبقى هناك قرابة عامين زار فيها إيطاليا وهولندا وإنجلترا وفرنسا ، حيث درس الفن فى باريس ، وقد ذهبت علاقته الجسمية بالراحة والعناية وتغير الأجواء ، وانتصر على ضعفه النفسى وتردده بالسفر والنقلة ولقاء الناس ، فلما عاد إلى وطنه عام ١٨٠٦ كان قد استرد عافيته وشفى من دائه ، فتابع دراسة الحقوق بعد أن انصرف عنها ، لكن الأدب كان يبدو أكثر جاذبية له من القانون ، وتعاونت أسباب ثلاثة على إقناعه بأنه خلق للكتابة وحدها : بدن عليل ، وإحساس عميق بالمرارة ، وفشل فى حبه ، فقد توفيت خطيبته وهى فى ريعان شبابها ، ابنة تسعة عشر ربيعا ! .

ولكى يرضى رغبته أصدر بالتعاون مع أخيه جليرمو وصديقه جاكوب ك. بولدينج صحيفة شهرية ، غايتها تربية الشبان ، وتهذيب الكبار ، وإصلاح المدينة ، وتتخذ لها سلاحا من الفكاهة المرحة ، والسخرية اللاذعة ، والمقال الناقد ، فالتف حوله جماعة من الشباب

يدينون برأيه ويسلكون منحاه، وفيها بدأ يكتب عن مدينته نيويورك، فلم ينبج من سلاطة قلمه أحد، ولم يتهيب الحديث عن أية نقيصة، وصنعها أسطورة في شكل تاريخ، وأجرى أحداثها على لسان فارس هولندي قديم، اسمه «ديدريش كنكريوكر»، كان موضع احتقار صحف عصره وازدراؤها، ومن حقارته كانت تتخذ المثل والشواهد، لكن رفاقه في الرحلة تعبوا بعد عشرين عددا من الصحيفة، فانفضوا عنه فأوقف إصدارها.

لكنه لم يتوقف عن كتابة «تاريخ نيويورك»، ونشره كتابا كاملا في مدينة فلادلفيا، فلقى تقديرا وإقبالا، إلا أن حرته في النقد، وبراعته في تصوير النقائص، أثارت عليه حفظة شركائه في الوطن، ممن لا يحبون الحديث عن أمهم المتواضع، وهفواتهم الإنسانية أمام الآخرين، فلما أعاد طبعه في إنجلترا رحب به الشاعر الإنجليزي توماس كامبل (١٧٧٧ - ١٨٤٤)، والقصاص المشهور والترسكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) وعُدَّ واحدا من الكتب الطيبة التي أثرت في الأدب العالمي، وكانت قوته تتمثل في سخرته، وروعة الحوار، ودقة تصوير الأحداث، مما يوحى بأنها وقعت فعلا، حتى أن ناشرا ألمانيا كبيرا، يدعى جوير، ذكرها في معجمه على أنها تاريخ حقيقي.

لم يكن وشنجن يعتبر «تاريخ نيويورك» بداية عمل أدبي له، إنما، والتعبير له شخصيا، مجرد لعبة روحية، وقد توقف بعد إصدار كتابه هذا طويلا، أعواما تبلغ التسعة، لم ينتج فيها شيئا، أو أنتج

شيئا قليلا للغاية لا يدخل في الحساب، لأنه لم يكن رضى المزاج، وكان على خلاف شعورى مع ما حوله ومن حوله فقرر الرحيل إلى أوروبا بحثا عن عالم مختلف ورؤى جديدة، وواتته الفرصة حين استقر السلام فى وطنه بانتهاء الحرب الثانية والأخيرة بين الولايات المتحدة وانجلترا، وتوقيع السلام النهائى، منتهاً فرصة مشاكل مالية عرضت لمؤسسة تجارية كان يملكها إخوته، والحاجة إلى حلها فى لندن، فغادر نيويورك وفى ذهنه أن يبقى بعيدا عنها شهورا، لكنّ غيبته استمرت ستة عشر عاما متتالية. ذهب أولا إلى انجلترا وإليها سبقته شهرة فياضة، فرحبت به محافلها الأدبية. زار كاهيل فى «سيدنهام» وحل ضيفا على الناقد الاسكتلندى جفرى، وقضى أياما فى ضيعة والترسكوت، وأعجب بلندن، فقد كانت ملء أحلامه طفلا، ويقول عن نفسه: «ولدت وتربيت فى بلد ناشئ، لكنى تكونت، مذ كنت صبيا، فى أدب أمة عريقة، وارتبطت روحى مبكرا مع ذكرياتها التاريخية، ومع الشعراء الذين شاركوا فى هذه الأحداث، وعاشوا فى هذه الأمكنة، ووصفوا عادات أوروبا وتقاليدها، وليس ثمة شئ من

هذا يمكن أن ينسب إلى وطنى، إلا فى حالات نادرة». أعجب فى إنجلترا بالأساطير الجذابة الحلوة، وبالحياة الريفية الوداعة، وبقلاع السادة المحصنة، وبالفرح والانطلاق يغمران كل الناس فى حفلات الميلاد وأعياده.

وصل إلى لندن فى سن فتية، ليس له من العمر غير ستة

وثلاثين عاما، وبلا موارد، فقد أفلس إخوته، وقد هو ثروته المستمرة في مناجم بوليفيا، فلم يبق أمامه غير العمل ليعيش فحمل قلمه وشمر عن ساعده، يؤلف في إنجلترا، وينشر في الولايات المتحدة أو لندن أو باريس، وبين عامي ١٧١٩ و ١٨٢٠. نشر كتاب «مسودات» في نيويورك، واشترت منه دار «ميراي» للنشر في فرنسا عام ١٨٢٤ كتابه «حكايات رحالة» بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه استرليني، وهو ثمن طيب بالنسبة لعصره ولو أن هذا الكتاب أدنى مؤلفاته، أهمية وفكرة وأسلوبا، وكان مثار نقد عنيف في العالمين القديم والجديد، ربما لأنه لم يكن استجابة حقة لإلحاح شعوري، بقدر ما كان محاولة لربح مادي.

لكن مفاجأة كانت تنتظره لم تدر بخاطره يوما، ولم يفكر فيها لحظة، ولو لم تعرض له لظل على الرغم من كل ما ألف وكتب أدبيا محليا، يهتم به الناطقون في لفته، وأبناء وطنه، ومؤرخو الحياة العقلية فيه، دون أن يتخطى حدوده الإقليمية إلى آفاق رحبية، لا تقف دون اجتيازه إليها عوائق اللغة أو الذوق أو الجنس، ففي عام ١٨٢٦ كان ألكسندر هـ. إفريت يفاوض إسبانيا كي تعترف بحكومة بلاده، بعد انتصارها في الحرب مع إنجلترا، وحصوها على الاستقلال، فلما نجح في مساعاه، عُيِّن أول وزير مفوض للولايات المتحدة في مدريد، فكتب في الحال إلى صديقه وشنجن يحمته على الهجى إلى إسبانيا ليعمل معه في السفارة شكلا، وليقوم في الواقع بترجمة كتاب

«رحلات كولومبس»، التي ألفها الأديب الإسباني رامون دى نقرت. ويجرى طبعا في مدريد، وكان الدبلوماسى الأمريكى قد سمع ثناء عليها، فأعجب بموضوعها وناق إلى نقله إلى لغته الوطنية، ونشره فى مسقط رأسه.

وجاء وشنجتن إلى إسبانيا، وفيها وجد جديدا بدأ به ومعه رحلة أخرى.



جاء وشنجتن إلى إسبانيا عام ١٨٢٦، فوجدها دولة متأخرة، تحكمها أرستقراطية جاهلة، وتسيطر على مصائر الأمور فيها رهبانية متعصبة، ويتغشاها ظلام دامس من كل جوانبها، حتى كره الناس الحياة فهم لا يعملون، فإذا أُجبروا هربوا، وإذا عوقبوا خنعوا، ولم تكن هناك عدالة ولا إحساس بها، والإعدام هو الأداة الوحيدة التى تنتظر المخالفين فى الرأى، وكانت السجون مكتظة، والمحاكم أهلة، والمجالس العسكرية تباشر عملها بلا قانون يحق وجودها، ولا تقاليد تحدد رسالتها، وطبقة مُبغضة من رجال الدين ألفها المطران أوسا أو «ملاك الإبادة» كما كانت العامة تسميه، عمّت كل إسبانيا، ومهمتها ملاحقة الأحرار وإبادتهم، وكانت الجاسوسية تحكم الدولة، يراقبون نظرات الناس وحركاتهم وقراءاتهم وحتى نبضات قلوبهم، والكتب الأجنبية ممنوعة كلية، إلى جانب الكتب الوطنية التى تعالج

موضوعات متحررة، أو تدرس العصر العربى فى موضوعية، أو تنظر إليه بعطف، وأقيمت رقابة صارمة على كل ما يطبع من صحف أو كتب، أو يمثل فى المسارح من روايات، وكان رجال الفكر المتحررون شيئاً ما إما فى السجن أو المنفى، وبدأ رجال الدين يطالبون بعودة محاكم التفتيش رسمياً، وقد أقيمت يوماً لاستئصال شأفة المسلمين بعد انتصار المسيحيين، وظلت تباشر عملها منذ أن أقر مجمع «فيرونا» المسكونى عملها عام ١١٨٣ إلى أن ألغيت فى إسبانيا نهائياً عام ١٨٢٠ (قبل قدوم وشنجن إلى إسبانيا بسنوات خمس)، ولو أنها ظلت قائمة على الصعيد العلمى حتى مطلع القرن العشرين.

كانت الطرق مليئة باللصوص، والمدن مثلاً فى القذارة، وبلغ اضطراب الأمن الشخصى والجماعى حداً لم يعد معه أحد آمناً على نفسه أو ماله، وبدأ الناس همسا يترحمون على أيام نصره، وحضارة خضرة، طابعها الرخاء والتسامح، وعمادها العلم والثقافة، وغايتها السعادة وتكريم الانسان، أضاءت جنبات الجزيرة يوماً على أيام العرب المجيدة.

وأيا ما كان الأمر، فقد وجد وشنطن إسبانيا دولة تتكون من دول، قشتالية اللغة، كاثوليكية الدين، لكنها عربية السحنة، إسلامية التقاليد، شرقية التراث، تتناثر الألفاظ العربية، صحيحة أو محرفة، من أفواه فلاحها وطبقاتها الدنيا، وتملاً أساطير العرب عقول الناس ووجدانهم، وتجربى حكايات ملوكها وترفهم على كل لسان، لم

تكن المدرسة قد انتشرت لتفرض على الأطفال نسيان الألفاظ العربية وإحلال بديل لها من أصل لاتيني، ولم تكن هناك مواصلات ميسرة، ولاصحف منشورة، ولاإذاعات مبثوثة، تعين على تسهيل عملية «المحو» الثقافي، كما حدث في هذا القرن، بعد أن نجح التعصب في استئصال التراث المادي، بإخراج المسلمين أو تقديمهم قوافل إلى مقاصل الإعدام، وكان وشنجتن حر الفكر، إنساني الوجدان، مفتوح القلب، فأورد لنا بعضا من تقاليد العرب الباقية. لانجدها في كتاب آخر ينتمي إلى هذا القرن (لاحظ أن ذلك كان في القرن الماضي، أو على وجه التحديد منذ أكثر من مائة عام)، ولم يقعد به مرض في النفس أو غل في القلب عن نسبة الفضل إلى ذويه.

يقول وهو يتحدث عن نظام السفر، في كتاب «حكايات الحمراء»: «إن مخاطر الطرق حملتهم على السفر في نظام يشبه إلى حد ما نظام القوافل في الشرق، فالحمالون يجتمعون في قوافل، ويسافرون في أيام معلومة، في صفوف طويلة كاملة العدة من السلاح، ثم ينضم إليهم المسافرون الذين يزيدونهم عددا إلى عدد، وقوة إلى قوة».

«والمُكاري الإسباني عنده ذخيرة لاتنفد من الأغاني والقصص الشعرية يسرى بها عن نفسه في سفره المتصل، في نعمة بدائية سهلة، تتكون من مقاطع قليلة، رافعا بها عقيرته في قوة، مادًا صوته،

مقطعا نعماته، على حين قد جلس جانبا من ظهر بغلته، التي تبدو كأنها تنصت إليه، موقفة بين خطوها والنغم، والمقطوعات التي يغنيها هي في كثير من الأحيان غراميات متواترة عن عرب إسبانيا، أو شيء من أساطير القديسين، أو بعض من أناشيد الحب، وكثيرا ما يرتجل المكارى أغنية على البديهة يصف فيها مشهدا يقع عليه، أو حادثا من حوادث الرحلة، وله ولع جنوني بالأغاني الشعرية يستمع إليها بين مناظر الوحشة والوحدة، مصحوبة أحيانا بجلجلة أجراس البغال، وهذه القدرة على الغناء والارتجال شيء شائع بين الإسبان، ويقال أنها موروثه عن عرب إسبانيا».

موروثه حقا وليس ذلك مجرد استنتاج، ولو محوت كلمة البغل واستبدلت بها الجمل، وحذفت لفظة إسباني وأحللت مكانها كلمة عربي، لما صورتها إلا قافلة تقطع فيافي الجزيرة العربية في القرن الخامس الميلادي أو ماتلاه من قرون، بنفس الطابع والحياة والتقاليد، وإذا كان ركض البغال في إسبانيا أوجد نوعاً معيناً من الشعر الإسباني، فقد كان وقع الجمل في الجزيرة العربية مصدر نشأة الشعر العربي بأكمله.

وجد وشنجتن نفسه بإزاء عالم جديد، لم ير له مثيلا فيما زار من أوروبا، وقبل أن يحدد طريقه بدأ يتأمل ما حوله ويدقق النظر فيه، يتفهمه ويتمثله ويتجاوب معه، وصنع كل ذلك في هدوء وعلى

روية، فإنتهى به المطاف إلى شىء آخر، غير ما أراد لنفسه أولاً، وغير ما فكر فيه صديقه الوزير.

كانت مهمته الرسمية أن يعمل ملحقا فى سفارة الولايات المتحدة فى مدريد، أما واقعا فكان يراد منه أن يضطلع بترجمة «رحلات كولومبوس»، ولقد بدأ فيها فعلا، لكنه ما كاد يرى الوثائق التى تزدهم بها دور المحفوظات الإسبانية ويقارن بينها وبين ما فى الكتاب، حتى أدرك أن الكتاب ألف تحت رعب محاكم التفتيش المصلت، وفى جو يفقد حرية الفكر تماما، فعزف عن الترجمة، وبدأ فى كتابة سيرة الرحالة الإبانى — أو الإيطالى — من جديد، فى موضوعية علمية، وعلى نحو أكثر حيادا ودقة. وفى أسلوب أكثر طلاوة ورقة، واقتضته ضرورة البحث أن يزور دور المحفوظات فى الإسكوريال، وأن يرحل إلى إشبيلية «حيث ترقد كل الوثائق الخاصة بحياة كولومبوس وباكتشاف أمريكا، فى دار محفوظات «جزر الهند الغربية».

جاءت رحلته إلى الأندلس — ويطلق الاسم الآن على جنوب إسبانيا ويضم مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وجيان والمرية وولبة وقادس — فى الربيع، أجل فصول العام فى شبه الجزيرة، وفى عصر لم تكن القطر البخارية قد اخترعت بعد، وذهب فى رفقة زميل ودليل وسائس كان يحكى لهم عبر الطريق مئات من الحكايات الجميلة عن اللصوص وقطاع الطرق، وقلوب العرب اللاتنين بقمم الجبال، يثيرون السخط، وينثرون الفوضى، وعن الحروب الماضية

والبطولات الخارقة، وكرامات القديسين. كانوا يقطعون الرحلة في ببطء، يتحسون روح الأرض التي يعبرونها، ويرتشفون روعة الطبيعة التي تحديق فيهم، ويتوقفون في القرى والضياع للتخفف من تعب السير ووعناء الطريق، يتحدثون إلى كل من يلقون من عابري السبيل: متولا يستجدي، أو متبطلا يطلب عملا، أو فلاحا في الطريق إلى حقله أو عائد منه، أو تاجرا ذاهبا إلى سوق الضيعة، أو نبيلًا يمتطي صهوة جواد أصيل، وتحنف به حاشية عديدة، فإذا حان وقت الغداء افترشوا الأرض على عباة أو ملاءة. واستظلوا بأشجار الزيتون، يأكلون سويا ويتقاسمون الزاد عدلا، وشيئا فشيئا بدأت تتكشف له معالم الحضارة العربية، ممثلة في بقايا القلاع والحصون، والمدن، وهندسة تخطيطها واختيار مواقعها، والزراعة وطرائق غرسها وإروائها، وجمع محاصيلها، وعندما وصل إلى إشبيلية وجد نفسه وسط عالم رائع ثرى بالتاريخ والمجد، وتبذت له عظمة الحضارة العربية في الوثائق وفي حياة الناس بصورة لم تتضح له في أى كتاب قرأه من قبل. عاش بعقله وقلبه وأعصابه مع العرب المطرودين بعد إقامة امتدت ثمانية قرون أو تزيد، وجرى بين يديه عدد من الوثائق التي تتصل بمحاكم التفتيش، أثارت اشمزاز وحنقه، وعرف العرب في تراجم مدوناتهم وكتبهم على حقيقتهم، فرسانا نبلاء، لا يذكركهم من جاء بعدهم إلا عبر الأساطير والحكايات، لحظتها قرر أن يكتب سلسلة من الكتب تهدف إلى إجلاء حقيقة هذه الحضارة السامقة، وتعريف مواطنيه بإنجازاتها وأصحابها، وكانت مجهولة لهم تماما.

عرف مثلا أن إشبيلية كان بها على أيام العرب مئة ألف معصرة لاستخراج زيت الزيتون، وأن هذا الرقم الهائل من المصانع، وكان في كورة واحدة، يفوق المعاصر التي توجد في إسبانيا كلها على أيامه، ودرس موقع مسجد إشبيلية الجامع وتاريخه، وأسف من قلبه للتعصب الأحمق الذي أطار صواب رجال الدين الكاثوليك فجعلهم يهدمون واحدا من أعظم مساجد إسبانيا، على الرغم من أنهم حولوه إلى كنيسة غداة إنتصارهم عليها عام ١٢٤٨م بزمن قليل، وكان يطيب له أن يقف طويلا في هجمة الليل، ملفوقا في ضوء القمر، وحيدا إلا من نفسه، يتأمل مثذنة المسجد الباقية «الخيزالدا» يفوض إلى ماوراء هيكلها المادى، يتأمل فيها التاريخ والفض وزهوة الانتصار. بلى!... إن المثذنة الخالدة بروعة معمارها استطاعت وحيدة، بلا مؤذن ولا داعية ولا مصلين، أن تنتصر على طوفان التدمير الزاحف، يحو كل ما هو عربى، وأن تبقى وتحلّد، وتظل حتى أيامنا هذه شاهدا حيا بليغا على حضارة كان أبرز سماتها البناء والتعمير!.

وراعه قصر إشبيلية، وقد بنى بعد إجلاء العرب عن المدينة، على أنقاض قصر المعتمد بن عباد، ولو أن مساحته الآن نصف ما كانت عليه أيام الملك العربى، وقد جدده الملوك الإسبان أكثر من مرة بأيدي مهرة من صناع العرب وأشرفهم المطرودين، وآخر تجديد شامل له تم على يد فيليب الرابع عام ١٦٢٤، وتمت عملية التجيد بأيدي مهندسين من العرب أيضا، من البقية المتخلفة من المطرد النهائي لهم،

الذى تم فى عهد سلفه فيليب الثالث، وربما استثنوا من قرار الطرد، كبقية أخرى من كبار المهندسين والفنيين، ليقوموا بهذا العمل قصداً. ومن الواضح فى القصر أن هؤلاء الصناع العرب، على الرغم من أنهم أكرهوا هم، أو آباؤهم، على اعتناق الكاثوليكية كانوا استجابة لدوافع نفسية يجمعون كل زخارفه بآيات قرآنية وأبيات من الشعر العربى، على التأكيد نقلوها دون إدراك لمعناها أو فهم، وإن كانوا يستطيعون قراءتها، فقد ظل هؤلاء العرب يكتبون الإسبانية اللغة التى فرضت عليهم فرضاً بحروف عربية حتى إلى ما بعد تجديد القصر كأنهم يتحدثون المنتصرين، ويسخرون من جهالتهم. وقد عرف وشنجت أن هذا القصر ليس إلا تقليداً غير دقيق لقصور الحمراء فى غرناطة، فهاجه الشوق لرؤيتها، وشدّ رحاله إليها، وفيها كانت له جولات وصادقات، ونتاج أدبى به دخل التاريخ من أوسع الأبواب.



وصل وشنجت إلى غرناطة، وجاب أهاء الحمراء، وتجوّل فى جنان العريف، وأخذ يحى اليازيرين حين تعيش بقايا الأسر العربية، لكنه لم يرد لنفسه أن يكون مجرد سائح أمريكى عابر، يرى الأشياء عجلاً، ويعجب بها عرضاً، ويتأملها ظاهراً دون أن يتعمق سرها، ورأى أن خير وسيلة يبلغ بها غايته كاملة أن يسكن الحمراء نفسها.

كانت الحمراء حين اتّخذ منها سكناً عزيز قوم ذل، «وبقدر ما يكون حظّ قطان بيت من الجاه والعز أيام رفايته، تكون رقة حال

ساكنية أيام ضعته وهوانه» فبعد بنى الأحمر وملكهم الزاهى، والملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل ودخولهما الظافر، وشارل الخامس واستعلائه الإمبراطورى، تقسمتها المحن وأناخت عليها البلايا، فوكل أمرها قلعةً حربيةً إلى حاكم مستقل عن غرناطة، احتفظ فيها بحامية، واتخذ من القصر العربى مقاما، ثم نشب بينه وبين حاكم المدينة خلاف، انتهى به إلى أن يجعل من درة بنى الأحمر مأوى للهاربين من الأحكام، والخارجين على القانون، فتحولت قاعاتها الفسيحة وأبوابها الممتدة إلى مأوى للفسلة والمجرمين والمتسكعين والمهريين وأراذل الناس، واللصوص وقطاع الطرق، وكان هؤلاء ينتقضون على غرناطة ومن فيها، ثم يلوذون بالحمرء، فيحميم حاكمها نكابة فى نده حاكم المدينة، وبديهي أن يعث هؤلاء بكل مقدسات القصر، فأوحشت ردهاته، وأجدبت حديقته، وتهاوت مبانيه، واحتلت قاعاته المذمبة أسر وضيعة، وطيور أبدة من بوم وصقور وخفافيش!.

ثم اتخذته الفرنسيون خلال غزوهم إسبانيا على عهد نابليون، مقرا لحاميتهم، ونزل القائد الفرنسى فى نفس القصر العربى، وأخذتهم به شفقة، فأصلحوا شيئا من أسقفه، وغرسوا جانبا من حدائقه، وأجروا المياه إلى نافوراته، لكنهم وهم غزاة عسكريون هدموا عند رحيلهم أبراج السور الخارجى، وأضعفوا من استحكاماته حتى لا يفيد منها العدو، فلم تعد تقوى بعدهم على شىء، ثم جاء من حاول أن يصلح الأمر، وأن يعيد إلى القلعة شيئا من جلالها.

سكن وشنجتن القصر العربى، وُخِّل إليه داخله أنه طوى  
حاضره، وانتقل بمشاعره إلى أيام آخر، أيام كان للعرب هنا سلطان  
وصولة، وعجب للأبنية، وكاد يبكيها، كيف طاولت الزمن،  
واستعصت على المحن، وصبرت على الهزيمة، وقهرت عوادى الفناء!  
جانب قاعاتها الفسيحة المرصعة بالمرمر، وتأمل بركتها الرحبية وكانت  
تغص بالسمك، ومشى فى أبنائها العالية وكانت مسرحا لكثير من  
قصص العرب الجياشة بالعواطف، الناضحة بالحب، الزاخرة بالخيال،  
وحاب الحدائق فأحب زهورها وتفايا ظلها، واستأنى عند قنواتها العربية  
القديمة تجلب المياه من الجبال، ولها خرير يشجى، وبريق يأسر،  
وأدرك أن وراء هذا الفن فى رفته وجلاله ذوقا مرهفا، وحسا نزاعا  
إلى الطيب من متع الحياة.

استأجر وشنجتن حجرته من سيدة عجوز تدعى: دُنيا أنتونيا  
هولينا، أو العممة أنتونيا كما كانوا ينادونها، تأليفها وتوقيرا، امرأة  
قوية ذكية غير مثقفة، وُكل إليها أمر القاعات العربية والحدائق،  
ترعاها وتسهل أمر زيارتها للراغبين من الغرباء، ثم تمش على  
ما يجودون به، وعلى ما يتبقى لها من ثمار الحدائق، بعد أن يحمل  
الحاكم خير ما فيها من فاكهة وأزهار، ويقم معها هانويل ابن أخ لها،  
وبنت أخ آخر تدعى دُلورس، فتاة جميلة، ذات عيون أندلسية سوداء،  
وديمة ومرحة، تنفق جل وقتها فى تربية ألوان من الدجاج والحمام  
والقطط، وكان الزائر الأمريكى يستأجر نرله بأثاثه وطعامه، فكانت

دلورس تقوم بترتيب غرفته، وإعداد طعامه، ولم يحتج وشنجن إلى زمن طويل كى يدرك أن غراما مشبوبا يشد مانويل إلى دلورس، وأنه فى ارتقاب أن ينهى دراسته فى كلية الطب، ويشتري فتوى البابا بالزواج — التعبير حرفيا لوأشجن نفسه — لما بينه وبين ابنة عمه من صلة القرابة، وكان يطيب له أن يتناول طعامه حيث يهوى: فى ردهة عربية، أو إلى جانب نافورة، أو فى ظل شجرة، أو على حرف قنّاة، أو فى صحبة القمر، فليس أجمل من رفقته فى ليلة صيفية، على تل مرتفع، فى مدينة أندلسية، وأحيانا مع أسرة العمّة أنتونيا، يتناولون الطعام سويا فى قاعة عربية قديمة يتخذون منها مطبخا ومائدة، وفى أحد أركانها أقاموا مواقد غير أنيقة، أفسد دخانها لون الجدار، وكاد أن يطمس الزخارف العربية، وفى المساء يتوافد على سيّدة البيت عديد من الأصدقاء، السكان الفقراء والخدم وزوجات قدامى الجنود، يجلسون إلى جوارها فى خشوع، ويتسمعون حديثها فى ضراعة، وينقلون إليها آخر إشاعات المدينة تزلقا وقربى، ومن حين لآخر يطيب لهم أن يسمروا. فيعزف شاب على القيثارة، وترقص الفتيات على النغم، وتردد العجائز أغاني موروثة، ويمضى الجميع فى مباحثهم حتى آخر الليل.

يقول وشنجن إن أول قصة قرأها فى طفولته الأولى، فى العالم الجديد وراء المحيط، كانت قصة إسبانية عن حرب غرناطة، وأن المدينة عاشت فى أحلامه، وزارها عبر الخيال، وعندما تحقق له

ما كان لديه حلما، « كان من الصعب عليّ أن أصدق أنني أسكن قصر أبي عبد الله حقا، وأطل من شرفاته على غرناطة » ولقد صور له الخيال أنه فى الجنة، وأن دلورس القائمة على خدمته، ليست إلا واحدة من حورها !.

لكن الحمراء بالنسبة لوشنجن لم تكن مجرد معمار وبناء وتاريخ، ومصدر إلهام وخيال وأحلام، وإنما أيضا هؤلاء البسطاء من الناس، الذين تعرف إليهم واختلط بهم، من رجال ونساء، يعيشون حياة قلقة مشيرة، ولئن أفسدوا أرستقراطية القصور وهدوءها ونظافتها وبهاءها، فقد أكسبوها طابعا شعبيا أضفى عليها مسحة من التاريخ المتحرك. وقد وثق صلاته بهم، وعرف أخص دخائلهم، وكانوا له مصدرا فياضا لحكايات فائنة وخيال جموح.

عرف تصورهم للقضايا، ونظرهم إلى التاريخ، وموقفهم من أممهم العربى، آراء لم تسجلها كتب على أيامهم، أو بعدها، استعلاء أو تجاوزا، لأن ما يؤمنون به لا يجارى تعصب الكنيسة، ولا يرضى أهواء الحاكمين.

وإلى جانب هؤلاء البسطاء من الناس أو أبناء الحمراء، كما يسمون أنفسهم، عرف أيضا الطبقة العليا فى المدينة، حضر حفلاتهم، وجلس إلى مواعدهم، وتردد على قصورهم، وأفاد من مكتباتهم وحضر حفلاتهم الاجتماعية، ولها طابع عربى، وكانوا يوثرون أن يقيموها فى بيوت عربية، وليس أفضل من الحمراء مكانا. وقد لزم القلعة جلّ

وقته، وقليلًا ما كان يهبط إلى المدينة ليزور صديقا، أو يطوف بحى البيازين، متجاوبا مع بيوته المتواضعة والوقورة فى الوقت نفسه، ودكاكينه ذات الطابع العربى فى نظامها وطرائق العمل بها، وقد حضر فى حى البيازين حفل زواج لاثنين من غمار الناس، ينحدرون من أصل عربى، ومن خلال صلاته هذه أعطانا وصفا للأسبان الذين لقيمهم فى أعلى المجتمع وأدناه على السواء: هناك طبقتان من الناس حياتهم بهجة دائمة، الأغنياء الموسورون والفقراء المعدمون، الأولون لأنه لا شىء ينقصهم، والآخرون لأنه ليس لديهم شىء يعملونه، وليس هناك من يعرف هذا الفن، فنّ من لا يعملون شيئا ويعيشون على لا شىء، خير من الطبقات الفقيرة فى إسبانيا، فللمناخ النصف ولزاجهم النصف الآخر: «اضمن للإسباني ظلًا فى الصيف، وشمًا فى الشتاء، وقليلًا من خبز وثوم وزيت وحمص وعباءة وقيثارة، وبعد ذلك فلتجر الدنيا كما تشاء».



هناك، وسط الهدوء والتاريخ، على أرض الأساطير والأجناد الضائعة، بدأ يجمع ويكتب الحكايات التى سمعها من أفواه الضائعين من الناس فى ثرثرتهم التافهة، وهم نصف سكارى، أو فى قة البهجة، وحوّل هذه المعتقدات الشعبية إلى تاريخ مبسط أعطاه عنوانا حكايات الحمراء، واحد من أحسن الكتب التى ألفت عن تراث

الأندلس الشعبي، أو إسبانيا الإسلامية بتعبير المحدثين من مؤرخي الإسبان.

الكتاب في مجموعه سلسلة من الحكايات التي كان يتداولها شفاها بقايا العرب الذين أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية ولم تشملهم قوانين الطرد، وتنتمي إلى عصور مختلفة، وتخالطها ذكريات وشجنت الشخصية عن إقامته في غرناطة والحمراء، وعلى الرغم من أنها كتبت في عصر رومانسي، وأن كاتبها يتحرك في خلقه الفني داخل هذا الإطار، مازالت تحتفظ بسحرها وجمالها وقيمتها كأثر شعبي وأدبي، إلى جانب أن وصفه التاريخي للحمراء وحجراتها وسكانها في تلك الفترة من الزمن يحظى من المؤرخين باهتمام كبير، ولقد أصبحت غرناطة بفضل هذا الكتاب مدينة رومانسية، وجذبت أجواؤها العربية اهتمام كل الوافدين عليها، حتى أن كاتبها أسبانيا هو ريكاردو فيآريال شكا من أن الرحالة من الأدباء الرومانسيين وقفوا جهدهم كله في البحث عن الأساطير العربية والرومانسية على الرغم من أنهم أورييون، وركزوا اهتمامهم كله في غرناطة العربية، أو على نحو أوضح لم تجذبهم الكنائس وما فيها من بذخ، ولا القصور الإسبانية وما أنفق عليها من مال، وهو أمر علله وشجنت نفسه: «إن الكتابة كانت تشع من المبانى الإسبانية التي أقامها المنتصرون إلى جانب، أو على أنقاض، المبانى العربية، وقد بناها أناس كانت حياتهم دون شك من أعجب أطوار التاريخ وأجلها».

كذلك أعطانا تفصيلات عن الشرائع الهامة عن كنوز العرب، أولئك الذين طردوا من بيوتهم يوماً، وألقى بهم فى البحر، يكافحون أمواجه الشرسة، ويواجهون أهواله الغادرة، حتى يبلغوا شاطئاً للأمان، ولم يكن أى منهم يصدق عينيه، طردوا دون أن يسمح لهم بحمل شىء من ثرواتهم، فحاولوا الاحتفاظ بها، أملاً فى عودة، طمروها بطن الأرض أو أودعوها قم الجبال، وحيثما سرت فى الأندلس تجد لها ذكراً وعنها باحثين.

ولقد عُثر على شىء منها، وذهب أغلبها لأن أصحابه أمعنوا فى إخفائه، ولم يعودوا إليه كما كانوا يؤملون، لاهم ولا أحفادهم من بعدهم، وهى ثروات لفتها مع الزمن أساطير شرقية الطابع: تحرسها تعاويذ وتخفيها طلاسم، ويقوم دونها وحش كاسر أو تنين شرس، وأحياناً عرب مسحورون، جامدون كالتماثيل، لهم سيوف مسلوطة وعيون لاتنام!.

بلغ من إعجاب وشنجتن بالحضارة التى رآها أنه فكر فى كتابة سلسلة من الأبحاث للدفاع عنها وتوضيح موقف العرب فى إسبانيا، وبدأ ذلك فعلاً بدراسة العرب فى موطنهم الأول، فأصدر كتابه محمد وخلفاؤه عرض فيه لمولد الإسلام ونشأته وتاريخه حتى عشية فتح إسبانيا، لكنه وهو الرجل الرومانسى الرحالة، صاحب الخيال المفرط، لم يستطع أن يبلغ فى كتابه هذا ما بلغه فى حكايات الحمراء، ومن ثم لم يحقق ما وعد به كاملاً، فقد أصدر كتابه

أساطير فتح إسبانيا، تناول فيه كثيرا من الروايات التي صحبت اختفاء لذريق آخر ملوك القوط، ثم فتح غرناطة على يد المسيحيين، ثم توقف جهده عند هذا الحد، فلم يعرض لما بين الفترتين، ولم يكمل دراسته الخاصة بتاريخ العرب والمسلمين.

لقيت حكايات الحمراء شهرة عالية واسعة، وترجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ويباع منها في العام الواحد عشرات الألوف، فما من قادم على الحمراء، وجائل في قصور بني الأحمر، وواقف بأطلالهم، إلا ونسخة منها يمينه، يتخذ منها رفيقا ودليلا.

عندما عاد وشنجتني إلى مدريد، في الستين من عمره، بعد غيبة دامت خمسة عشر عاما، سفيرا لبلاده في إسبانيا، كان يقيم في غرناطة أكثر مما يقيم في مدريد، وعندما غادرها إلى غير رجعة بكأها بكاء صادقا، وبرح به الشوق مخلصا، وقال: «لم أرفى حياتي مكانا أحلى من الحمراء، ولا يمكن أن أرى لها في مكان آخر مثيلا».



إذا كان وشنجتني قد أخذ بهذه الأساطير ونقلها لنا في خيال رائق ونسج محكم، فإنها بالنسبة لنا نحن، الذين كنا هناك يوما، ووثائق تسد فجوات في تاريخنا، تعاونت قوى كثيرة على طمسها، وإذا كانت هذه الذخيرة من الوثائق التقطها مؤلف واحد، أمريكي الروح والعقل والشاعر، في مكان واحد هو الحمراء، من غمار الناس

اللائنين بقصور بنى الأحمر، فكم من الحكايات المشابهة فى قرى أخرى كثيرة، لم يسجلها أحد، ولم يقدر لها بعد أن تصبح تاريخياً مكتوباً! .

إنّ وشنجن نفسه قد أشار من بعيد إلى شيء مما أتصوره، يقول: «رأيت فلاحى أرباض غرناطة يحكون قصة بنى سراج فى أبيات مروعة على نفقات قيثارة باكية، بينما السامعون يستزلون اللعنات على أبى عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر»، ولم يسجل لنا هذا الشعر الإسباني الحزين، يبكى فرسانا ويلعن ملكاً مهزوماً، لأنه كان يرى فى أبى عبد الله رأياً آخر، غير ما يرى التاريخ والأساطير، كان يراه سيء الطالع، نكد الحظ، لعبة فى يد أحداث أقوى منه ومن أتى إنسان .

أريد أن أقول: إننا فى حاجة إلى طليعة تسافر إلى الأندلس، من المتخصصين فى أدبها وحضارتها، تعيش فى القرى، وتختلط بالعامّة، تسمع منهم، وتعى عنهم وتسجل ما يثرثرون، وهى طليعة لن تؤتى ثمارها إلا إذا كانت جادة، تؤمن برسالتها، بل تسافر على نفقتها، حباً فى العلم وطلباً له كما كان يقول أسلافنا الطيبون، وسوف تعود لنا بمحصلة وافرة من الأمثال والقصص والحكايات كثير منها لم يسجله الإسبان أنفسهم، لأنه على غير ما تهوى الكنيسة هناك، فإزال للكنيسة بعد سلطانها القاهر ظاهراً أو خفياً، على كل ما ينشر من مطبوعات .

للحق والتاريخ كان الأمر موضع حديث ودراسة مع أستاذنا  
الجليل محمد سعيد العريان، يرحمه الله، ذات يوم في مدريد من  
صيف عام ١٩٦١، وكان يطيب له، طيب الله ثراه، أن يستأني  
بالأندلس أياما إذا كان في طريقه إلى عودة المغرب، وللعذوتين من  
قلبه وعقله مكان، وسألني لم قعدت عن هذا الواجب؟، وقلت  
حييا: أنا مبعوث طالب شهادة، يريدني القانون أن أتردد على  
الجامعة، وألتقى بالأستاذ، واختلف إلى المكتبة، وأتقدم ببحث وأنال  
أجازة، ووقتي ضيق، وراتبي محدود، فأطرق مليا وراقت له الفكرة،  
ولم يكن يعدل إيمانه بالعروبة والإسلام إلا ذكاؤه الخارق، وملاحظته  
الوضيئة، وشجاعته الملهمة فقال: لنعد لها في قابل الأيام سويا، أنا  
وأنت، أكون في المعاش أقيت عن كاهلي أثقال الرسميات وتكون  
في الجامعة، مدرسا طالب علم، وقلت: إن شاء الله، ومضت أعوام  
ثلاثة على لقيانا، عدت بعدها إلى القاهرة لأفجع فيه، وفي أمل  
علمي رجوت الله أن يتحقق، أجل وجدت محمد سعيد العريان قد  
أصبح روحا في جوار الله، وخبرا يتحدث عنه التاريخ!

وبعد.. إن المجد مازال ينتظر كاتبها يعرف كيف يتحدث عن  
الأندلس!

مجلة البحث العلمي

الرباط - المغرب

١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م